الموضوعية في اصدار الاحكام النقدية بحق إرباب المناصب دراسة مقارنة

درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة للمقريزي (ت845هـ/1441م) انموذجا

Objectivity in issuing monetary judgments against employers of positions A comparative study

pearls Unique contracts in the notables' translations useful to Al-Maqrizi

(D.845 AH / 1441 CE) as a model)

إعداد

Prepared by

الدكتور. أحمد عليوي صاحب

Dr. Ahmed Oleiwi Sahib

كلية التربية ـ جامعة الأمام الكاظم (ع) للعلوم الأسلامية

College of Education - Al-Imam Al-Kadum University For Islamic Sciences - Iraq

ahmeda8888s@gmail.com

المستخلص:

هنالك بعض المؤثرات التي فعلت فعلها في أحكام بعض المؤرخين النقدية تجاه المترجمين، مثل صلة القرابة، أو القرب من أقطاب السلطة وغيرها، بالرغم من كونها حالات قليلة، لكنها تبقى احدى سلبيات المؤرخين، ولكن نجد مؤرخنا المقريزي قد تجاوز تلك السلبيات الموضوعية في نقد لأرباب المناصب من السلاطين والقضاة والوزراء؛ الذين عاصرهم وعرفهم عن قرب، احيانا يكونون من الأقارب أو الاصحاب ، أو من عرفهم جراء الاحتكاك الاداري، كون المقريزي قد تولى عدة مناصب إدارية جعلته أعرف حالاً من باقي المؤرخين.

وقد قسم الباحث هذه الدراسة الى عدة مباحث، جاء في المبحث الاول: السيرة والمكانة العلمية للمقريزي، بينما جاء المبحث الثاني: نقد السلطة أي أصحاب القرار السياسي، أما المبحث الثالث: جاء ليسلط الضوء على نقد القضاة كون هذا المنصب من المناصب الحساسة في بناء الدولة والمجتمع، واخيراً تطرقت الى نقد الجانب الاداري المتمثل بالوزراء.

الكلمات المفتاحية : الأحكام النقدية ـ أرباب المناصب ـ المقريزي ,

Abstract

There are some influences that have been done in the judgments of some critical historians towards translators, such as the relationship of kinship, or proximity to the poles of power and others, although a few cases, but it remains one of the negative historians, but find our historian has exceeded those negatives, To the positions of the sultans, judges and ministers; who knew them closely, sometimes they were relatives or acquaintances, or those who knew them due to administrative friction, because Al-Maqrizi had held several administrative positions made him know more than other historians.

The researcher divided the study into several axes. The first topic was: The biography and scientific status of al-Muqrizi. The second axis was the criticism of the authority, any political decision makers. The third axis came to highlight the critique of the judges. And society, and finally touched on criticism of the administrative side of the ministers.

Key Words: Monetary Rulings - Positions - Al-Maqrizi,

المقدمة:

برز في القرن التاسع الهجري طائفة من فطاحل النقاد وكبار المؤرخين، انتدبوا انفسهم لكشف احوال بعض الشخصيات وبينوا للناس درجاتهم ولقبوهم بما يستحقون من المحاسن او المثالب.

وان الغرض من هذه الدراسة التعرف على دقة النقد عند المقريزي، ومدى موضوعيته، وأهم الركائز التي استند عليها في ذلك، لهذا نلحظ في منهجية تقي الدين المقريزي (ت845هـ/1441م) بأنها أتصفت الى حد ما بالموضوعية والأمانة العلمية وعدم المجاملة، فنقد رجالات السلطة لم يقف عند إظهار الجوانب الايجابية والسلبية، وإنما جاوزه إلى إصدار الحكم على الكثيرين من السلاطين والأمراء وأرباب المناصب في الإدارة المملوكية .

وقد اعتمد الباحث على منهج المقارنة والتحليل في عرض الروايات التاريخية، من حيث توافقها او معارضتها لما جاء به المقريزي، لغرض الوقوف على مدى دقته في النقد وما إلى ذلك من أمور توضح فيما إذا كانت الشخصيات التي انتقدوها تستحق النقد أم لا.

المبحث الاول: السيرة والمكانة العلمية للمقريزي، من حيث اسمه، وولادته، ونشأته، والمناصب التي تولاها، فضلا عن مؤلفاته العلمية، بينما جاء المبحث الثاني: نقد السلطة اي اصحاب القرار السياسي، اما المبحث الثالث: جاء ليسلط الضوء على نقد طبقة القضاة كون هذا المنصب من المناصب الحساسة في بناء الدولة والمجتمع، واخيرا تطرقت الى نقد الوزراء اي نقد الجانب الاداري الذي يعد عصب بناء الدولة.

المبحث الاول: المقريزي السيرة والمكانة العلمية:

- **اسمه:**

هو العلامة المؤرخ صاحب الخطط، ابو العباس تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد، ويعرف بالمقريزي نسبة الى حارة المقارزة ببعلبك ببلاد الشام (السخاوي،1896م: ج2/ ص21) ، كانت اسرته تقيم ببعلبك، وكان جده بها من كبار المحدثين، ورأى ابوه ان يتحول الى القاهرة حيث تقلد بعض الوظائف في القضاء، وديوان الانشاء، ومنذ ذلك الوقت اتخذ مصر موطناً.

- **مولده ووفاته:**

المقريزي مصري المولد والدار والوفاة(ابن تغري بردي، 1993م: 1993م: ج1/ ص80)، ولد بالقاهرة في حارة برجوان سنة 760هـ/ 1359م(السيوطي، حسن المحاضرة، 1967م: ج1/ ص418)، وتوفى بها ايضا حيث كانت وفاته عصر الخميس التاسع عشر من رمضان سنة 845هـ/ 1441م(ابن حجر، 1998م: ج4/ص187).

- **النشأة والتحصيل:**

نشأ المقريزي بالقاهرة، وتفقه على مذهب الحنفية وهو المذهب الذي كان عليه جده لأمه العلامة شمس الدين محمد بن الصائغ(ت 776هـ/ 1375م)، ثم لما ترعرع وجاوز العشرين وتوفى ابوه سنة 786هـ/ 1384م تحول شافعياً(السخاوي، 1966م: ج2/ ص21-25)، واهتم جده بتعليمه وتحفيظه القرآن، وتتلمذ على الكثير من الائمة والشيوخ في عهده منهم: ابا الفضل النويري(ت 786هـ/ 1384م)(ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، 1987م: ج3/ ص221-222)، النجم ابن رزين(ت 791هـ/ 1389م)(ابن حجر،1993م: ج2/ ص357-358)، الشيخ البرهان التنوخي(ت800هـ/ 1397م)(ابن الجزري، غاية النهاية، 1933م: ج2/ ص7-8)، والزين التاجر(ت 805هـ/ 1403م)(ابن حجر،1998م: ج2/ ص241-242)، والشيخ سراج الدين عمر البلقيني(ت 805هـ/ 1403م)(الصيرفي، نزهة النفوس، 1970م: ج2/ ص171-172)، وشهاب الدين احمد بن طوغان الاوحدي (811هـ/ 1408م)(ابن حجر، 1998م: ج2/ ص406)، وغيرهم، ثم حج وسمع الحديث بمكة وبالشام عن كثير من الحفاظ، واجيز بالرواية من كثير كأبي البقاء السبكي وابي بكر بن المحب، وشغف بالتاريخ فجمع منه شيئاً كثيراً وصنف فيه كتباً، وكان لكثرة ولعه بالتاريخ يحفظ كثيراً منه(ابن حجر،1998م: ج4/ ص188) ، وقد تتلمذ على المؤرخ الكبير بن خلدون (ت 808هـ/ 1406م) اثناء اقامته بالقاهرة وتوليه قضاء المالكية (المقريزي، السلوك،1936م: ج4/ ص24؛ ابن حجر،1961م: ج2/ ص343-348)، وتأثر المقريزي تأثراً كبيراً باسلوب ابن خلدون في نظراته الاجتماعية والاقتصادية الثاقبة، وطريقته في التحليل، واتضح ذلك جلياً في مؤلفاته. (المقريزي، 1996م: ج1/ ص11).

الوظائف التي شغلها:

كان المقريزي محل احترام رجال الدولة في عصره، وكانوا يعرضون عليه اسمى المناصب، فكان يجيب مرة ويرفض اخرى، ففي سنة 788هـ/ 1386م اصبح موقعاً بديوان الانشاء وكان في الثانية

والعشرين من عمره(المقريزي، الخطط،1854م:ج2/ ص255)، ثم عين نائباً من نواب الحكم عن قاضي القضاة الشافعي(ابن تغري بردي،1993م: ج1/ ص80)، ثم خطيبا بجامع عمرو بن العاص، ثم تولى امامة جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي وهي وظيفة كبيرة في ذلك العصر، وولي الحسبة غير مرة، وكانت اول مرة تولاها فيها من قبل الظاهر برقوق في 21 رجب سنة 801هـ/1398م. (ابو زيد، الحسبة في مصر،1986م: ص96).

وفي سنة 816هـ/ 1413م سافر المقريزي الى دمشق ودرس في المدرستين الاقبالية والاشرفية، وتولى الى جانب ذلك نظارة اوقاف القلانسي، ثم عرض عليه ان يلي قضاء دمشق ولكنه رفض، وبعد عودته من دمشق الى القاهرة عزف عن الوظائف الحكومية ولزم داره حيث تفرغ للقراءة والدرس والتأليف(ابن تغري بردي،1993م: ج1/ ص80).

ثم حج سنة 834هـ/ 1431م واقام بمكة مدة اشتغل اثناءها بالتدريس، ثم عاد الى القاهرة ليعكف على الدرس والتأليف حتى توفى سنة 845هـ، مخلفاً تراثاً ضخماً من المؤلفات في شتى فنون العلم والمعرفة، وقد قال عنه ابن تغري بردي(ت 874هـ/1469م) الذي كان احد تلاميذه:" تفقه وبرع وصنف التصانيف المفيدة الجامعة لكل علم، وكان ضابطاً مؤرخاً متقناً، محدثاً معظماً في الدول". (ابن تغري بردي،1993م: ج1/ ص80-81).

- **مؤلفاته:**

كان المقريزي محباً للتأليف مغرماً بالتاريخ، ولم يقتصر غرامه به على نوع واحد بل تناول عدة انواع، فكتب في التاريخ العام، وفي الخطط، وغير ذلك، وكان تنقله بين الوظائف المختلفة في الدولة معيناً على معرفة النظم الديوانية واخبارها، وهذا بدوره ادى الى وصفه لكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية، وبذلك اصبحت مؤلفاته من اهم المصادر لدراسة تاريخ مصر واثارها.(سليم، عصر سلاطين المماليك،1962م: ج3/ ص32).

المؤلفات التي تصف مصر:

- عقد جواهر الاسفاط في اخبار مدينة الفسطاط ، وهو كتاب مفقود(المقريزي، 1996: ج1/ ص13).
- السلوك لمعرفة دول الملوك، من ابرز كتب المقريزي، ومن ابرز ما كتب في التاريخ المصري الوسيط، اتم به المقريزي سلسلة التواريخ المصرية بجمع وتسجيل اوسع ما وجد من المعلومات حول عصر الدولتين الايوبية والمملوكية من سنة 577هـ حتى السنة التي سبقت وفاته 845هـ.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار.
- البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب، يبحث في القبائل التي سكنت مصر.

كتب التراجم:

- كتاب المقفى الكبير، وهو كتاب في تراجم اهل مصر والواردين اليها، حافل في تراجم الملوك والامراء والعلماء المصريين او عرفتهم مصر من جميع الاقطار(ابن تغري بردي، 1993م: ج1/ ص80-81).
- درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا، يعد من اوفى مصدر في التاريخ الفاطمي.

كتب السير والتاريخ العام:

- امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاحوال والحفدة والاتباع، وهو يتحدث عن شمائل النبي (ص) وآل الرسول والسيرة النبوية والهجرة والغزوات، ومجموعة من الاخبار عن احوال النبي (ص) واحكامه واعماله ودقائق حياته وحديثه.
- الدرر المضيئة في تاريخ الدولة الاسلامية.

الرسائل الصغيرة:

رسائل المقريزي كثيرة وفي غاية الاهمية، وقد كتبها في اواخر حياته بعد ان ازداد نضجاً واطلاعاً، وهي وسائل متعددة الاهداف تطرقت الى شتى فنون العلم والادب، ويضيق المجال في ذكر جميع الرسائل وذكرناها موجزة منها:

- النزاع والتخاصم فيما بين امية وبني هاشم، وهي رسالة صغيرة يبحث فيها المقريزي امر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الامويين والهاشميين(ابن تغري بردي، 1993م: ج1/ ص80-81).
- ضوء الساري في معرفة اخبار تميم الداري، وتميم الداري هو احد الصحابة الاولين استقر في ارض الخليل بفلسطين وتوفى سنة 40هـ.
- الالمام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام، كتبه المقريزي في مكة عام 839هـ، وحرره في مصر عام 841هـ بعد تدقيقه.
- الطرفة الغريبة في اخبار حضرموت العجيبة.

- اخبار قبط مصر.
- الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك، الف هذا الكتاب سنة 841هـ، وبدأها بفصل في حجة رسول الله(ص) التي تسمى حجة الوداع، وبعدها يؤرخ لمن حج من الخلفاء والملوك، حيث تضم ثلاثة عشر خليفة، ومن الملوك ثلاثة عشر. (ابن تغري بردي، 1993م: ج1/ ص80-81).
- شذور العقود في ذكر النقود.
- الاكيال والاوزان الشرعية.
- النقود القديمة والاسلامية.
- اغاثة الامة بكشف الغمة، هو كتيب صغير يتناول فيه تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ اقدم العصور الى عام 808هـ/ 1405م.
- المقاصد السنية في معرفة الاجسام المعدنية.
- تجريد التوحيد المفيد.
- البيان المفيد في الفرق بين الايمان والتلحيد. (ابن تغري بردي، 1993م: ج1/ ص80-81).

المبحث الثاني: نقد اصحاب القرار السياسي(اصحاب السلطة):

ان منهجية النقد التاريخي عند المقريزي قد اتصفت الى حد ما بالموضوعية العلمية وعدم المجاملة، وهذا ما يؤكده المقريزي الذي كانت له صحبة مع سودون الظاهري(ت 803هـ/ 1401م)(المقريزي، 2002م: ج2/ ص 101-103)، قد رسم لنا شكل العلاقة التي ربطت بينهما بقوله: "ولقد صَحِبتُ سودون هذا مدة وأطاعه الله لي وأوصل إليَّ بواسطته نعمة ورياسة وأذله لي، فلم أر منه ما أكره قط"(المقريزي، 2002م: ج2/ ص 101-103).

ولعل منهجه الصحيح في النقد هو الذي يعطي لنا صورة عن بعض جوانب سياسة هذا الأمير، وصفاته السلوكية فيقول: " كان فيه من شراسة الخلق وشدة البطش وسرعة الغضب وكثرة الشح وزيادة الطمع "(المقريزي، 2002م: ج2/ ص 101-103).

أما رأي ابن تغري بردي فيقول: "كان أميراً جليلاً ذا شكالة حسنة، ووجه صبيح. كان ربعة في الناس، وكان عارفاً بأنواع الفروسية، متجملاً في ملبسه ومركبه ومماليكه، نشأ في السعادة "(ابن تغري بردي، 1993م: ج6/ ص115).

ولكن رأي السخاوي المؤيد للمقريزي والمخالف لابن تغري بردي جاء على النحو الآتي :" أنه كان ظالماً عاتياً بخيلاً متكبراً سيء الخلق دميم الخلقة كثير الشر وهو الذي فتح باب الشر بعد موت الظاهر، قال ويقال إنه دفن في قيده بدمشق"(السخاوي،1966م :ج3/ ص284).

وعلى الرغم من احترام الامير سيف الدين ابو المعالي يلبغا السالمي(ت 811هـ/ 1408م)(السخاوي، 1966م: ج10/ ص289) للمقريزي لكن الأخير ينتقده بقوله: "صَحِبته سَفَرا وحضرا وكان لي مُجِلاً ومُعظما... الا انه كان متهورا في اخذ الاموال وانفاقها مع العسف واللجاج والوقوف مع ما يراه لا يزحزحه عنه شيء، ولا ينقاد الى احدٍ ويستبد برأيه، فيغلط غلطات لا تحتمل، ويستخف بمن سواه ويعجب بنفسه ويريد ان يجعل غايات ما يرومه مبادئ فينعكس الأمر عليه".(المقريزي، 2002م: ج3/ ص548-549).

وبهذا فأن اهم ما نلاحظه في المنهج النقدي للمقريزي هي الموضوعية التي تعد من الخصائص العلمية، ذلك ان هذه الموضوعية هي التي تضفي على انتقاداته وما يمكن ان يقدر لها من قيمة وأهمية، فضلاً على ذلك ان علاقة المقريزي بالمترجم وصحبته له مدة طويلة جعلته مطلعاً على دقائق خصاله.

المبحث الثالث: نقد القضاة:

اما نقده لطبقة القضاة فنلحظ أن المقريزي ينقد أقرانه المعاصرين من القضاة بألفاظ تبين موقفه الايجابي، وهذا ما نجده أيضا في ترجمة القاضي عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز ناظر الجيش (ت807هـ/1404م)(السخاوي،1966م: ج4/ ص307)، الذي وصفه المقريزي بانه كان: " رئيساً محباً في أهل الخير، وكان جارنا مدة، ثم صار بيننا وبينه صهاره رحمه الله، فما كان أكثر رياضة أخلاقه، وملاحة وجهه، وعذوبة كلامه ومودته"(المقريزي، 2002م: ج2/ ص321)، ولا نعلم هل ان المقريزي امتدحه لأنه يستحق المدح او لأنه كان صهراً له.

كما ان ابن حجر الذي تربطه به صلة قرابة ايضاً اشاد به بطريقة تقترب من وصف المقريزي له حيث قال: "وكان محباً في الصالحين وفي أهل الخير... وهو جد أولادي لأمهم".(ابن حجر، 1998م: ج1/ ص308).

ونجد في بعض الاحيان ينقد أقرانه المعاصرين بألفاظ تبين موقفه السلبي منهم" فلم يزل على سوء السيرة "، " فلم تحمد سيرته"(المقريزي، 2002م: ج1/ ص167-169)، وان بعض هؤلاء القضاة قد ترددوا على المقريزي وهو في دمشق، وقد صحب بعضهم واطلع على سيرتهم، فقد ذكر المقريزي أن القاضي احمد بن عبد الله بن شهاب الدين النحريري المالكي(ت 803هـ/ 1400م)(ابن حجر، 1998م: ج1/ ص256)، الذي أصبح من القضاة الذين عينهم الملك الظاهر برقوق على المماليك الشامية، فولاه قضاء المالكية بمدينة طرابلس الشام ، فباشر القضاء أسوأ مباشرة، وكان كما قيل:

لقد كشف الإثراءُ منك خلائقاً ... من اللؤم كانت تحتَ ثوْبٍ من الفقر

(الابشيهي، المستطرف ، ج1/ ص424).

" فلم يزل على سوء السيرة حتى صرف في يوم العشرين من ذي القعدة فلم تكتمل له سنة، فساءت سيرته في مباشرته، وقبحت أحدوثته بما أظهر من خسة النفس وضعة القدر وخبث العنصر ولؤم الطباع، الى أن أخذه الله بالموت سنة ثلاثة وثماني مئة غفر الله له، فلقد رافقته في مباشرته، فكان من أقبح ما رأيت سيرة وأسوأ من عرفت سريرةً ". (المقريزي، 2002م: ج1/ ص167-169).

ومن الملاحظ أن المقريزي في هذه العبارات انتقد شخصاً معاصراً له نقداً لاذعاً دون خوف من أهله أو مريديه، وهذا ما يصعب القيام به في عالمنا اليوم لوجود محددات اجتماعية ومحاذير قانونية.

أما ما جاء في كتاب رفع الإصر عن هذا القاضي فنصه: "وكان يتغانى لبس الصوف القُبرصي، بحيث كان يتغالى في ذلك، فلا يلبس منه إلا ما يستعمل له بالعناية والرعاية، فاتفقت له كائنة بطرابلس... وكان قبيح الفعل والصفة، مشوه الخِلْقة والمنطق، مبغضاً إلى رفقته ومن دونهم، من وجوه البلد وأعيانها وعَوامِّها، فحضر يوماً مجلساً عند السلطان، فتكلم بجفاء وسوء أدب، فأقيم ثم عزل بعد أيام، فكانت ولايته عشرة اشهر".(ابن حجر، 1961م: ج1/ ص20).

أما رأي ابن تغري بردي في هذا القاضي فقد اعتمد على آراء المقريزي فيه وختم ترجمته له بالقول: "فباشر القضاء أسوأ مباشرة إلى أن صرف قبل أن يكمل السنة"(ابن تغري بردي، 1993: ج1/ ص353).

وهكذا اتفق ثلاثة من ابرز مؤرخي عصر المماليك على انتقاد هذا القاضي نقداً سلبياً بما لا يدع مجالاً للشك في انه كان سيء السلوك والسيرة.

ان علاقة المقريزي بالمترجم وصحبته له مدة طويلة جعلته مطلعاً على دقائق خصاله ، وهذا ما فعله ايضاً مع القاضي كمال الدين عمر بن إبراهيم بن محمد، قاضي القضاة أبو حفص ابن العديم الحلبي الحنفي(ت811هـ/ 1409م)(السخاوي، 1966م: ج6/ ص65-66)، أذ قال فيه: "والذي برع في الفقه والأصول وغير ذلك، وولي قضاء القضاة الحنفية بحلب مرارا، وقدم القاهرة غير مرة أخرها بعد احتلال تيمورلنك للشام، وقد كثر ماله، وسعى بأهل الدولة حتى ولي قضاء القضاة بديار مصر، وكان من شر قُضاة مصر حُمقا ورقاعة وجراءة واقداما... وتهافتا على جمع المال، متظاهرا بالربا، وقحا فحاشا جسورا على الاستبدال بالأوقاف بحيث أتى هو وشيخه الملطي، ثم هو وابنه على اتلاف معظم اوقاف القاهرة ومصر تقربا لأهل الدولة وحواشيهم بما يحبون، وكان مع ذلك موسرا، كثير المال، ليس بحجاب بل يتبدل بالمشي على قدميه في الأسواق ويعرف فروع مذهبه وأصوله معرفة جيدة، وله مروءة وفيه عصبية لمن يقصده ويترامى عليه، وبالجملة فلم يكن من الله في شيء بل هو رجل من رجال الدنيا، ولقد كانت بيني وبينه صحبة أكيدة، وكان لي معظما يبادر الى قضاء حوائجي ولا يرد لي قولا الا ان الحق احق ان يتبع".(المقريزي، 2002م: ج2/ ص 428-429).

ولكن هذا النقد من قبل المقريزي له سبب معين المح اليه المؤرخ ابن تغري بردي، دون ان يصرح به فيقول: "وكان القاضي كمال الدين المذكور رئيساً عالماً فاضلاً حشماً، وجيهاً عند الملوك وقوراً، وله مكارم وأفضال. وقد ثلبه الشيخ تقي الدين المقريزي بأمور هو بريء عنها، لأمر كان بينهما "(ابن تغري بردي، 1992: ج3/ ص492). والواقع ان موقف ابن تغري بردي يبقى ضعيفاً لعدم ذكره حقيقة الأمر.

ثم ترجم ابن تغري بردي لابن ذلك القاضي محمد(ت 819هـ/ 1416م)(السخاوي، 1966م: ج4/ ص216) بما نصه: "وكان عالماً ذكياً فطناً، مع طيش وخفة، ومهابة وحرمة، وثروة وحشم. وقد

ثلبه الشيخ تقي الدين المقريزي بقوادح ليست فيه، والإنصاف في ترجمته ما ذكرناه، وأنا أعرف بحاله من الشيخ تقي الدين وغيره، لكونه كان زوج كريمتي، ومات عنها".(ابن تغري بردي، 1992: ج4/ ص60).

وعند النظر بما قاله هذا المؤرخ نجد ان السبب الذي قد يقف وراء دفاعه عن القاضي وابنه وهو المصاهرة، ثم ان ابن تغري بردي جرح الابن اذ وصفه بالطيش والخفة فلماذا لا يريد للمقريزي ان ينتقده.

اما رأي السخاوي بالقاضي كمال الدين المذكور فدونه بما نصه:" وكان الكمال كثير المروءة متواضعاً بشوشاً كثير الجرأة والإقدام والمبادرة في القيام في حظ نفسه، محباً في جمع المال بكل طريق عفا الله عنه، استقل بالقضاء سنة أربع وتسعين وسبعمائة عوضاً عن جمال الدين ابن الحافظ فباشره بحرمة وافرة ، وكان رئيساً له مروءة وعصبية عارفاً بأمور الدنيا ومعاشرة الأكابر ومخالطة أهل الدولة ". (السخاوي، 1966م: ج6/ ص66).

اما رأيه بابنه فيقول:"... وأوصاه أن لا يترك منصب القضاء ولو ذهب فيه جميع ما خلفه فقبل الوصية وبذل حتى استقر فيه... كثير الوقيعة في العلماء قليل المبالاة بأمر الدين كثير التظاهر بالمعاصي سيما الربا بل كان سيئ المعاملة جداً احمق أهوج متهورا... وقد امتحن في الدولة الناصرية على يد الوزير سعد الدين البشري وصودر مع كونه قاضيا، وبالجملة فكان من سيئات الدهر".(السخاوي، 1966م: ج8/ ص235-236). وهكذا جاء حكم السخاوي معاضداً لحكم المقريزي تجاه هذا القاضي وأفعاله السلبية.

ونأى ابن حجر بنفسه عن التفصيل بخصال هذا القاضي فاجمل نقده له بعبارة مقتضبة اخلت بموقفه منه على الرغم من كونه ألّف كتاباً خاصاً بقضاة مصر ، فكان عليه ان يصدر حكماً تفصيلياً وليس مختصراً كما هو الحال في النص الآتي: " وكان شهماً فصيحاً مقداماً، وكان يعاب بأشياء ويحمد بأشياء كثيرة من التعصب لمن يقصده والقيام مع من يلوذ بِهِ ".(ابن حجر، 1961م: ج1/ ص127).

ومن القضاة الذين نقدهم المقريزي وقد صحبهم قاضي دمشق، محمد شمس الدين الاخنائي الدمشقي(816هـ/ 1413م)(السخاوي، 1966م: ج9/ ص136-137)، اذ اورد ما نصه: "باشر القضاء مباشرة غير مرضية ولا مشكورة،... وكان عاريا من العلم تردد إلي بدمشق مرارا وصحبته بها،

وكان من رجال الدنيا العارفين بطرق السعي، واما الاخرة فما احسب له من نصيب الا ان يشاء ربي شيئا، انه غفور رحيم".(المقريزي، 2002م: ج3/ ص60-61).

ويقترب السخاوي من موقف المقريزي تجاه هذا القاضي اذ يقول: "كان شكلاً ضخماً حسن الملتقى، كثير البشر والإحسان للطلبة، عارفاً بجمع المال كثير البذل له على الوظائف والمداراة للأكابر مع قلة البضاعة في الفقه، وربما افتضح في بعض المجالس لكن بذله وإحسانه يستره ".(السخاوي، 1966م: ج9/ ص137).

ونلحظ أن المقريزي أحياناً عندما ينقد شخصية ما، يذكر ايجابياتها، والعلم الذي وصل اليه، وبعدها يذكر سيرته وسلوكياته الأخلاقية، فعندما ذكر معاصره القاضي احمد بن إسماعيل بن خليفة بن خليفة بن عبد العال، شهاب الدين بن عماد الدين الحسباني الدمشقي القاهري الشافعي(ت 815هـ/ 1412م)(ابن تغري بردي، 1993م: ج1/ ص242-243)، قال :" ... والذي تفقه على يد أبيه وغيره، وطلب بنفسه فأكثر جدا بدمشق والقاهرة، ولم يزل يسمع حتى سمع ممن دون شيوخه، مع ذكاء وتفنن، وكتب تفسيرا أجاد في تهذيبه لو كمل، وعلق على(الحاوي) في الفقه شرحا، وشرح(الفية ابن مالك) في النحو، وكان بارعا فيه، أخذه عن ابي حيان، وناب في الحكم بدمشق مدة، ثم ولي قضاء القضاة بها غير مرة فلم تحمد سيرته، وكان لا يزال يخرج على السلطان، ويترامى على الشر، ويلج في مضائق الفتن حبا في الرياسة". (المقريزي، 2002م: ج1/ ص366).

واختلف ابن تغري بردي بعض الشيء عن المقريزي في تقييم شخصية هذا القاضي حيث قال: " كان إماما عالما فقيها، بارعا في الفقه، والعربية، والحديث، وغير ذلك، أفتى ودرس سنين، وولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق وخطابتها غير مرة، وقدم القاهرة مرارا عديدة".(ابن تغري بردي، 1993م: ج1/ ص242).

نستشف مما ذكر عن القضاة ويمكن تسجيل بعض الامور منها: ان القضاة كانوا من اكثر الشخصيات المترجمة التي انتقدها مؤلفوا التراجم المصريين، وقد يعود ذلك الى حساسية منصب القضاء وكونه على مساس مباشر بحياة الناس ومصالحهم، وكون فساد القضاة وظلمهم للرعية هو خلاف الغاية من وجود ذلك المنصب وهو احقاق الحق والحكم بالعدل بين الناس، ومنها ايضاً ان المؤرخين ركزوا في نقدهم للقضاة على مدى أحقيتهم للمنصب واهليتهم له من الناحية العلمية، ومدى التزامهم بشروط منصب القضاء وأهمها الحكم بالعدل بين المتخاصمين.

المبحث الرابع: نقد الوزراء:

ورصد المقريزي السلوك العام لبعض الوزراء، وميز بين السياسة الإدارية، والسلوك الأخلاقي المتدني ، ومن هؤلاء الوزير ابن أبي شاكر عبد الوهاب (ت 819هـ/ 1419م)(ابن تغري بردي، 1993م: ج7/ ص383-384)، فنلاحظ أن المقريزي ذكر محاسنه قائلاً: "فباشر الوزارة مباشرة مشكورة، وضبط تعلقاتها ضبطا جيدا، فهابته الكتاب وخافوا منه لما يعرف به من تمكنه في الصناعة". (المقريزي، 2002م: ج2/ ص368-369).

لكنه يعود فيقول عنه:" إلا أنه كان منهمكا في اللذات التي لا تباح تحليلا، ماكرا، سيء الباطن، غدارا، عريقا في الظلم، ولم يكن له همة سوى بطنه وفرجه، ولولا خلو الوقت لما كان أهلاً للسيادة، ومع ذلك فلم يخلف بعده مثله في معرفة الكتابة والمباشرة بجلب المال". (المقريزي، المقريزي، 2002م: ج2/ ص368-369).

ومقارنة مع ما ذكره عنه المؤرخ ابن تغري بردي نقرأ نقداً ايجابياً لا اشارة سلبية فيه :"وكان رحمه الله حسن الإسلام، جيد الاعتقاد في الفقهاء والصالحين، وكان يتجنب النسوة النصارى ويكره دخولهن إلى داره، وهذا أمر عظيم في الأقباط، ومن فعل ذلك منهم يكون قوي الإيمان، وكان فيه الخير، وعمر مدرسة بين السورين ظاهر القاهرة، ووقف عليها عدة أوقاف، وعمر الرباط بمكة مقابلة باب جياد – أحد أبواب المسجد الحرام – ولم يكمله". (ابن تغري بردي، 1993م: ج7/ ص383-384).

بينما ذكره السخاوي قائلا: "فباشرها– اي الوزارة– مباشرة حسنة وشكره الناس كلهم وحدث في وزارته الوباء فلم يشاحح أحداً في وارثه بحيث كثر الدعاء له ولكن لم تطل مدته بل مات بعد تسعة أشهر وذلك يوم الخميس حادي عشر ذي القعدة سنة تسع عشرة وكان بعيداً من النصارى متزوجاً من غيرهم وهي علامة حسن إسلام القبطي سيما مع كثرة فعله الخير والصدقة ومحبته في أهل العلم وأن كان منهمكاً في اللذات شديد الوطأة على العامة موصوفاً بالدهاء وبالجملة فقد باشر الوزارة برفق لم يعهد مثله وكان عارفاً بالمباشرة جيد الكتابة".(السخاوي، 1966م: ج5/ ص103).

وعلى هذا نجد السخاوي قد مزج بين ترجمتيّ المقريزي وابن تغري بردي له.

ونستنتج مما سبق أن هذا الوزير كانت له المقدرة والمؤهلات في النظم الإدارية أي في اختصاصه، وبالأخص في مهنة الكتابة، ولكن نلاحظ أن المقريزي قد ركز على سلوكه وأعطاه وصفاً

اخلاقياً ودينياً، وأن هذه الصفات السيئة لا تؤهله لهذا المنصب، لولا خلو تلك المرحلة من الرجال الذين يمكن أن يشغلوا تلك المناصب لكان هو بعيداً عن الوزارة.

ولا نعول على رواية ابن تغري بردي لأنه لم يعاصره، إذ توفى هذا الوزير ولم يزل ابن تغري بردي طفلا صغيرا، ورواية المقريزي هي الأقرب الى الصحة لأنه عاش معه في القاهرة، فضلا عن توليه منصب الحسبة الذي يتيح له معرفة الشؤون الإدارية من أصحاب القرار.

ونلاحظ أن المقريزي عندما ينتقد الوزراء المصريين يستخدم ألفاظاً تشير الى الظلم والشرور، وكذلك يذكرون ألفاظاً تعبر عن أن صاحب الترجمة لا يصلح لشئ، أو ليس لديه أي مؤهلات لهذا المنصب، أو خبرة أو تجربة تكون له سلاحاً في منصبه، وكذلك نلاحظ قضية تكرار الألفاظ التي تدل على حرص الشخصية المنتقده على جمع الاموال بشتى الطرق سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة.

فالمؤرخ المقريزي الذي كان له صحبة مع الوزير ماجد بن عبد الرزاق بن غراب، الصاحب فخر الدين (ت 811هـ/ 1411م)(السخاوي، 1966م: ج6/ ص234-235)، وقد رسم لنا شكل العلاقة التي ربطت بينهما بقوله: "رافقته وأنا ألي الحسبة، وترددت اليه بعد تركي لها عدة سنين لما كان بيني وبين أخيه من الصحبة "(السخاوي، 1966م: ج3/ ص26). ولعل منهجه الصحيح في النقد هو الذي يعطي لنا صورة عن بعض جوانب سياسة هذا الوزير، وصفاته السلوكية فيقول: " كان قَدَما، ضخما، هجم الصورة، قبيح السيرة، جاهلا، ألكنا، عسوفا، الا ان سعد اخيه كان سببا لترقيه... وكنتُ أشبهه بحمار عليه جُل من حرير"(السخاوي، 1966م: ج3/ ص26). وهو بهذا التشبيه حاول تشكيل صورة ذهنية للقارئ للمكانة الحقيقية لهذا الوزير.

بينما وصفه السخاوي بقوله: "وكان سيء السيرة في مباشرته ظالماً عسوفاً جاهلاً مع حدة وقبح شكالة وضخامة "(السخاوي، 1966م: ج6/ ص234). وهكذا نرى ان هنالك اتفاقاً بين اثنين من اشهر مؤرخي مصر في عصر المماليك حول سلبية هذا الوزير.

فالمقريزي قال عن الوزير تاج الدين الأرمني(821هـ/ 1418م)(المقريزي، 2002م: ج2/ ص 304-311): "فوضع السيف في العرب وأسرف في سفك الدماء وأخذ الأموال، وتجاوز الحد والمقدار والظلم، ثم طلب الزيادة في العلو والفساد في الأرض، فبذل للناصر أربعين ألف دينار، فولاه وظيفة الاستادارية عوضا عن الأمير تاج الدين عبد الرزاق ابن الهيصم في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع عشرة وثمان مئة، فوضع يده في الناس بأخذ أموالهم بغير شبهة من شبه الظلمة حتى

دخل الرعب على كل بريء... وسر الناس بعزله سرورا كثيرا".(المقريزي، 2002م: ج2/ ص 304-311).

لكن للأسف لم يوجه المقريزي نقداً للسلطان الناصر فرج الذي اطلق يد هذا الوزير في مصائر الناس ظلماً وعدواناً، وباع له منصب الوزارة بيعاً.

وأضاف المقريزي قائلاً:" وكان جبارا، قاسيا، شديدا، جلدا، عبوسا، بعيدا عن الترف، قتل من عباد الله مالا يحصى، وخرب إقليم مصر بكماله، وأفقر أهله ظلما وعتوا وفسادا في الأرض ليرضي سُلطانهُ، فأخذه الله أخذا وبيلا، ولعذاب الآخرة أخزى، نسأل الله العافية".(المقريزي، 2002م: ج2/ ص304-311). ويلاحظ أن المؤرخ فسر نهايته تفسيراً دينياً.

ونقده ابن تغري بردي بقوله: "لا ينكر عليه ما كان يفعله من الظلم والجور، فإنه كان من بيت ظلم وعسف، وكان عنده جبروت الأرمن، ودهاء النصارى، وشيطنة الأقباط، وظلم المكسة، فإن أصله من الأرمن، وربي مع النصارى وتدرب بالأقباط، ونشأ مع المكسة بقطيا، فاجتمع فيه من قلة الدين وخصائل السوء ما لا يوصف كثرة، لعمري هو أحق بقول القائل:

مساوئ لو قسمن على الغواني ... لما مهرن إلا بالطلاق

(الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ج4/ ص407)

قيل إنه لما دفن بمدرسته سمعه جماعة من الصوفية وغيرهم وهو يصيح في قبره، وتداول هذا الخبر على أفواه الناس، قلت: وما خفاهم أعظم إن شاء الله تعالى، فلله الحمد والمنة بهلاك مثل هذا الظالم في عنفوان شبيبته إذ لو طال عمره لكان ظلمه وجوره يملأ الأقطار"(ابن تغري بردي، 1993م: ج7/ ص317). وتقليل ابن تغري بردي لظلم هذا الوزير كما هو واضح من قراءة السطور اعلاه كان تفسيراً آخر مفاده ان النشأة بين متولي جمع المكوس الاقباط هي التي جعلت منه ظلوماً.

وهنا تدخل الأساطير والخرافات للتشفي بالوزير الميت ومحاولة التنقيب عما تحمله الناس من ظلم بسببه وردعاً لمن يحاول ان يقوم بما قام به ثانية.

وفي كتاب آخر له قال ابن تغري بردي عنه: " كان من الظلمة المشهورين، وهو أحد أسباب خراب بلاد الصعيد... وكان من المفسدين في الأرض، فأراح الله العباد منه، والله يلحق به من بقى من أقاربه، لتنقطع هذه السلالة النجسة من بين المسلمين"(ابن تغري بردي، 1998م: ج1/ ص420-

421)، ونأخذ على ابن تغري بردي اصداره حكماً مطلقاً على اسرة كاملة هي اسرة ذلك الوزير إذ لا تزر وازرة وزر اخرى، فلا يمكن أن يأخذهم بجريرته.

أما ما ذكره السخاوي عنه فنصه : " فوضع السيف في العرب وأسرف في سفك الدماء وأخذ الأموال فلما قبض على مخدومه، واستقر ابن الهيصم في الاستادارية عوضه بذل الفخر أربعين ألف دينار، واستقر في ربيع الآخر سنة أربع عشرة مكانه، ولم يلبث أن صرف في ذي الحجة منها بعد أن سار سيرة عجيبة من كثرة الظلم وأخذ الأموال بغير شبهة أصلاً والاستيلاء على حواصل الناس بغير تأويل ففرح الناس بعزله وعوقب".(السخاوي، 1966م: ج4/ ص349).

ويتضح مما ذكر أن في هذا الوزير عدة صفات منها، صفة دينية، قليل الدين، وصفة أخلاقية، أنه فاسق متجاهر بالمعاصي، مشهوراً بالظلم، والسر في تماديه بظلم الناس وأخذ اموالهم عنوة هو سكوت السلطان الناصر عن ظلمه وعدم القيام بردعه، والسبب انه اشترى المنصب من السلطان بمبلغ كبير مما اطلق يديه في ظلم الناس واتباع وسائل شتى في جمع المال منهم، وسيرة هذا الوزير شبيه بسيرة الوزير ابن محب الدين المشير(824هـ/ 1421م)(ابن تغري بردي، 1993م: ج5/ ص85-88)، "إذ كان رجلاً طوالاً، ظالماً، مسرفاً على نفسه، منهمكاً في اللذات، قليل الخير كثير الشر، وكان ينوع الظلم في أخذ الأموال فأخذه الله من حيث يأمن"(ابن تغري بردي، 1998م: ج1/ ص263). بينما ذكره السخاوي بقوله: " وكان ظالماً منهمكاً في اللذات قليل الخير كثير الشر، وأنه كان أهوج ظالماً عسوفاً طماعاً"(ابن تغري بردي، 1998م: ج1/ ص263). يلاحظ أن السخاوي اعتمد في نقدِهِ لهذه الشخصية على ترجمة ابن تغري بردي له، غير أنه ترك الاوصاف الجسدية له والعيوب الخلقية لأنه اعتنى بالسلوك الشخصي دون الأوصاف الظاهرية التي لا تعني هذا المؤرخ.

الخاتمة:

في ضوء هذه الدراسة التي تطرقت الى الموضوعية في اصدار الاحكام النقدية بحق ارباب المناصب درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة للمقريزي(ت845هـ/1441م)،توصلنا إلى جملة من النتائج، نذكرها على النحو الآتي:

- ان نقد المقريزي كان أناساً عاشوا معه وصحبوهم أو كانوا من أقربائه دون أن يلتفت الى ما قد يؤدي ذلك اليه من مشاكل أو مخاطر وهو أمر يصعب على الكثيرين القيام به قديماً وحديثاً.
- ومن خلال تتبع تراجم كتاب درر العقود تَبين أن النواحي التي يقع فيها النقد، هي السلوك الديني، والسلوك الأخلاقي للمترجم له.
- لاحظنا ان اغلب الوزراء قد تولى هذا المنصب، قد استغلوه في ظلم الرعية، لذا نقدهم نقداً سلبياً مثل قولهم:" فوضع السيف في العرب " أو " كان من الظلمة المشهورين".
- ان النقد التاريخي الايجابي او السلبي قد شمل عدة شخصيات منها تتصل بالمؤرخ بصلة القرابة، او كانت تلك الصلة نابعة من صداقته لتلك الشخصية وتتحدد تلك العلاقة من حديث المؤرخ الذي يترجم الشخصية، من حيث سنوات الصحبة أم تكون هذه الصحبة عن طريق السفر، أو اتصاله عن طريق اشتغاله معه في الأمور الادارية، وأحيانا يذكر المقريزي هذه الصحبة ويؤكد عليها بعبارة صريحة.
- أكدت الدراسة على ان المقريزي كان يتصف بالأمانة العلمية في نقده للمترجم له، وعدم المجاملة.

قائمة المصادر والمراجع:

اولاً : المصادر الأولية:

1. الابشيهي ، شهاب الدين محمد (1986م) ، **المستطرف في كل فن مستظرف** ، ط2، تحقيق ، مفيد محمد قميحة ، بيروت: دار الكتب العلمية .

2. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (1998م)، **الدليل الشافي على المنهل الصافي**، ط2، تحقيق ، فهيم محمد شلتوت، القاهرة: دار الكتب المصرية.

3. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (1993م)، **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق، محمد محمد امين، القاهرة : دار الكتب المصرية.

4. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (1992م)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، بيروت : دار الكتب العلمية.

5. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف (1933م) ، **غاية النهاية في طبقات القراء** ، مكتبة ابن تيمية.

6. ابن حجر، شهاب الدين احمد بن علي بن محمد العسقلاني(1998م) ، **إنباء الغمر بأنباء العمر**، تحقيق، حسن حبشي، القاهرة.

7. ابن حجر، شهاب الدين احمد بن علي بن محمد العسقلاني(1993م)، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ، بيروت : دار الجيل.

8. ابن حجر، شهاب الدين احمد بن علي بن محمد العسقلاني(1961م) ، **رفع الإصر عن قضاة مصر**، تحقيق، حامد عبد المجيد وآخرين، القاهرة : الأميرية.

9. الخطيب التبريزي، ابو عبد الله محمد بن عبد الله(1983م) ، **شرح ديوان أبي تمام**، ط3، تحقيق، محمد عبده عزام، سلسلة ذخائر العرب، القاهرة : دار المعارف.

10. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(1896 م) ،**التبر المسبوك في ذيل السلوك**، القاهرة: المطبعة الأميرية.

11. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(1966 م) ، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، القاهرة : دار مكتبة الحياة.

12. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (1967م) ، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة** ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية.

13. الصيرفي، الخطيب الجوهري علي بن داود (1970م) ، **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، تحقيق، حسن حبشي، القاهرة : دار الكتب.

14. ابن قاضي شهبة، تقي الدين ابو بكر احمد (1987م) ، **طبقات الشافعية**, بيروت: دار الندوة الجديدة.

15. المقريزي، احمد بن علي بن عبد القادر الحسين(1996م) ، **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ط2، تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة : مطبعة الأهرام التجارية.

16. المقريزي، احمد بن علي بن عبد القادر الحسين(2002م) ، **درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة**، تحقيق، محمود الجليلي، دار الغرب الاسلامي.

17. المقريزي، احمد بن علي بن عبد القادر الحسين(1936م) ، **السلوك لمعرفة دولة المماليك** ، تحقيق، مصطفى زيادة ، القاهرة : دار الكتب المصرية.

ثانياً : المراجع الثانوية:

18. ابو زيد، سهام مصطفى(1986م) ، **الحسبة في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر المملوكي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

19. سليم، محمود رزق(1962م) ، **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي**، القاهرة : مكتبة الآداب.

20. مصطفى، شاكر (1979م) ، **التاريخ العربي والمؤرخون**، بيروت : دار العلم للملايين.